الحربُ المقدّسة

كان مذهب عبد الرحمن الناصرفى نظام الحكم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة، وأن يختار لتصريف أمور الدولة رجالا من صنائعه، الذيــن رفعهم بعد ضعة، وأعزهم بعــد مهانة[1]، وحرص قبل كل شــىء على أن يجرد زعماء العرب الذين لعبوا بالأمراء قبله من كل قوة، فكان رؤســاء دولته من المحدثين فى النعمة الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم فى المجد سابقة، فتوثقت عراهم بسيدهم كما يتشبث الضعيف بالقوى. إذ لولاه لداستهم الأسر العربية بالأقدام، ثــم إنه حاط ملكه بجيش عظيم جرار، انتقى قواده من خيار رجال حرسه من الصقالبة، وأضاف إليهم رجالا من الفرنجة، وغاليسية، ولومبارديا، وغــير هؤلاء من أجناس شــتى، وكان تجار الإغريق والبندقيــة يجلبــون هؤلاء الأرقــاء ويبيعونهم صغــارًا للخليفة، ليهذبهم وينشئهم فى الإسلام، وكثير منهم من أصبح كامل الثقافة شــديد الإخلاص لمولاه، وهم يشبهون من نواح كثيرة مماليك خلفاء صلاح الدين بمصر، الذين اختاروهم لحراســتهم، والذين بلغوا فى

(١) يقول «صاحب أخبار مجموعة»: وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عســكره وفوض إليه جليل أموره، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه.

النهاية ذروة المجد، فكانوا سلاطين لمصروالشام، نعم يشبهونهم فيما كان لهم من عبيد ينصرونهم، وفى أن الخليفة أقطعهم ضياعًا يقوم على زراعتها الخول والعبيد، وفى أنهم كانوا دائمًا يستجيبون لدعوة سيدهم إذا دعاهم للحرب، فيقبلون مسرعين على رأس أتباعهم وعبيدهم، ثم يشبهونهم فى أنهم وصلوا بعد حين من الدهر إلى قمة السيطرة والنفوذ، فاغتنموا فرصة ذبول الدولة وتدهورها بعد موت عبد الرحمن الناصر وخليفته، وأسسوا لأنفسهم دولة، فكان لهم بذلك سهم بين السهام، ويد بين الأيدى التى قضت على حكم الإسلام بالأندلس.

استطاع الأمير مستعينًا بالصقالبة أن يطهر البلاد من عصابات السوء، وأن يسل منها روح التمرد، ثم أن يشعل حربًا ضروسًا على نصارى الشمال ويعود مظفرًا منصورًا. فقد كانت مملكة الإسلام فى أيامه مهددة بخطر أشد من خطر الفوضى والثورات، ذلك أنها كانت محصورة بين مملكتين متحديتين شديدتى المراس، تتطلب كلتاهما شدة اليقظة والحذر: ففى الجنوب ربضت مملكة الفاطميين فى شمال إفريقية متنمرة متوثبة، وكان من الطبيعى أن يذكر حكام الساحل البربرى أن العرب قبلهم جعلوا من إفريقية معبرًا إلى إسبانيا، كما أن السياسة المتوارثة بين حكام البربر كانت توسوس إليهم دائمًا أن يضموا - إذا استطاعوا - ولايات إسبانيا المشرقة إلى إفريقية.

ورأى الخليفة أنه لا يستطيع التخلص من الفاطميين أو تجنب شرورهم إلا ببث الفتن وإشعال نار الخلاف بين قبائل البربر، فنجح فى ذلك أيما نجاح، وأخضع بدهائه قسمًا كبيرًا من ساحل البربر، وتملك قلعة سبتة الحصينة، ثم إنه خصص مقدارًا كبيرًا من دخل الدولة ببناء أسطول عظيم، نازع به الفاطميين سلطتهم فى بحر الروم.

أما فى الناحية المقابلة نحو الشمال، فكان على المسلمين أن يقابلوا عدوًّا هو أشد من الفاطميين كيدًا، وأبعد خطرًا، فقد نبتت نصارى أستورياس وتأثلت من حَفنة من الرجال زاد عددهم فى هذه الأيام واشتد ساعدهم، فاعتزوا بالكثرة والقوة، ونما فى نفوسهم حافز قوى إلى استرجاع وطنهم المسلوب.

وقصة ذلك: أنهم حينما اصطدموا بالمسلمين عند الفتح، فقدوا صوابهم، وطارت نفوسهم شعاعًا، وتمزقوا شذر مذر مذعورين من هؤلاء الشياطين، فالتجئوا إلى جبال أستورياس وأقاموا بها، فكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التى نزلوها شفيع ذاد المسلمين عنهم. ولم يجتمع حول زعيمهم «بلاى» فى كهف «دونجا» إلا ثلاثون رجلا وعشر نساء، فلم ير العرب أن مثل هذه الطغمة القليلة من الفارين تستحق المطاردة والاقتناص، فتركوهم وشأنهم يقيمون فى مغاور هذا الكهف الذى لا ينال إلا من شعب ضيق لا يرقى إليه إلا بسبعين درجة، ودارت الأيام وتعاقبت الأعوام،

وهم يتكاثرون ويتناسلون، حتى استطاعوا بعد حين أن يؤلفوا فى معقلهم الحصين جيشًا تامًّا.

ووصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة المسيحية فى حزن وأسى فقال:

وفى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى[1]، قام بجليقية علج خبيث يدعى: بلاى فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه. ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم؛ والحماية عن حريمهم، وكانوا لا يطمعون فى ذلك، وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية لم تفتح إلا الصخرة التى لاذ بها هذا العلج، ومات أصحابه جوعًا إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلا ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل فى جباح (خلايا) معهم فى خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجًا ما عسى أن يجىء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به» ويقول مؤرخ آخر: كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا، دفعة واحدة، شرارة هذه الجذوة التى قدر لها أن تلتهم دولة الإسلام بالأندلس!

---

(١) ولى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م واستشهد فى شعبان سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م.

تقوت هذه العصابة الفارة شيئًا فشيئًا، وزاد فى بأسها وفود النصارى إليها من أقطار الشمال، وحينما شعرت بالقوة، واطمأنت إلى الثقة بنفسها، خرج رجالها من معقلهم وأخذوا يناوشون البربر النازلين بحدود الأندلس، حتى اضطر العرب فى النهاية إلى أن يزحفوا على كهف هؤلاء المغيرين البسلاء ليستأصلوهم، ولكنهم لم يظفروا بطائل، فقد هزمهم المسيحيون فى هذه المحاولة وغنموا منهم مغانم كثيرة، وفى سنة ٧٥١ م / ١٣٤ هـ تزوج ألفونسو (الأذفونش) صاحب كانتابريه (التى لم ينفذ إليها العرب) بابنة بلاى، فوحَّد هذا الزواج كلمة المسيحية، وهبّ ألفونسو فأثار الولايات الشمالية على العرب، وشن بجنود من أهل غاليسية على المسلمين حروبًا متعاقبة دفعتهم إلى التقهقر نحو الجنوب، واسترد من أيديهم مدن براجا، وبورتو (مدينة البرتقال)، واستروجة، وليون، وطلمنكة، وزمَورة، وليدسمة، وسلادانة، وشقوبية، وآبلة، وأوسما، وميراندة. وامتد الحد المسيحى إلى الجبال الكبرى وأصبحت حصون الحد الإسلامى مدن: قلمرية، وقورية، وتالافيرة، وطليطلة، ووادى الحجارة، وتُدلة (تيوديلة)، وبنبلونة.

والحقيقة أن ألفونسو استرد ولايات قشتالة، وليون، وأستورياس، وغاليسية، غير أن هذه العصابة بعد أن ملكت ما ملكت، خلت إلى أنفسها فرأت أيديها صفرًا من المال، ورأت أنه لم يكن لها من العبيد والخول من يقومون ببناء القلاع واستنبات

الأرض فـى تلك البقاع الواسـعة التى اسـترجعتها، فخطر لها أن تتركها للعرب على أن تكون حدودًا بينهما غير ثابتة، وارتدت إلى المقاطعات حول خليج غسـقونية حتى يحين الوقت الذى تسوّغ لها فيه كثرة العدد والمال احتلال بقاع أوسع.

وجاء القرن التاسـع وأحس المسيحيون بما يحفزهم إلى استعادة البقاع التى تغلبوا عليها من قبل، فانتشروا بمقاطعة ليون، وابتنوا لصد أعدائهم قلاع: زمورة، وسان استيبان، وأوسما، وسيمنقاس، ثـم تقدموا فضيقوا فسـحة الحدود بينهم وبـين العرب، حتى لقد كانت تتلاصق جيوش الفريقين فى بعض المواطن. وحاول العرب فى بداءة القرن العاشر أشد محاولة أن يستردوا أراضيهم بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ولكن المسـيحيين هزموهم شـر هزيمة، وتواثبوا على حدودهم بعد أن اسـتعانوا برجال من طليطلة، وبعد أن شـد أزرهم سانشـو (شـانجة) ملك نافار (بنارة)، الذى أصبح موئل المسيحية فى الشمال.

وكانت حروب المسـيحيين نقمة وسوط عذاب على أعدائهم، فقد كانوا جفاة أميِّين، وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم. وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشـين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمِّنوا مسـتجيرًا، ولم يتركوا فارًّا، ولم يبقـوا على جريح. وهذا يذكرنا، والحـزن ملء صدورنا، بما كان للعـرب من بطولة ورفق وسماحة خلـق، فكثيرًا ما عفوا عن أعدائهـم نبلاء متكرمين، فى

حين نرى اليوم رجال ليون وقشتالة العتاة يذبحون جميع رجال الحاميات، ويستأصلون مدنًا مليئة بالقطان، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم.

لم تمر سنتان من حكم عبد الرحمن الناصر حتى زحف أردون الثالث صاحب ليون بجيوشه على العرب، وأثار حربًا شعواء بلغ بها أسوار ماردة، واشتد هلع أهل بَطليوْس لمقدمه، فأسرعوا إلى مصالحته بالمال لاتقاء شره. واشتد الخطر على المسلمين لقرب هاتين المدينتين من قرطبة، ولم يكن يحول بين جيوش أردون وبينها إلا شارات مورينا الشاهقة، فكان الموقف شديد الحرج على المسلمين، ولو أن الأمير كان جبانًا لتلمس لنفسه الأعذار فى نكوصه عن القتال، لأن ماردة لم تكن تعترف بعد بسلطانه، فأى شأن له إذا وثب النصارى على ولايات خارجة عليه؟ ولكن شيئًا من هذا لم يكن من طبع عبد الرحمن ولا من خلقه، فوثب فى الحال وجمع جموعه وأرسل بعثًا إلى الشمال، فشن غارات قاسية على مملكة المسيحيين، وأرسل فى السنة التالية سنة ٩١٧ م / ٣٠٥ هـ حملة أخرى لم يكن لها من التوفيق ما كان للأولى، فهزمها أردون أمام أسوار سان استيبان، واستخلص من المسلمين كثيرًا من الغنائم.

وحينما رأى القائد العربى المغوار[1] طلائع الهزيمة، قذف بنفسه بين الأعداء ومات وسيفه فى يده، وكان من جبن ملك ليون

(١) هو ابن أبى عبدة.

ووحشيته أن أمر بحز رأس هذا الجندى الشجاع وتسميره بباب القلعة إلى جانب رأس خنزير، ثم أطغى الانتصار جيوش ليون ونافار، فعاثوا فى السنة التالية فيما حول طليطلة، وتغلب عليهم جنود قرطبة فى أثناء ذلك فى موقعتين، وفى هذا الحين عزم عبد الرحمن على أن يستكمل عدته، لأنه رأى أن التغلب على المسيحيين يتطلب جهدًا أعظم وأمضى، فقاد فى سنة ٩٢٠ م / ٣٠٨ هـ الجيوش بنفسه، ومضى مسرعًا متسلحًا بمهارته وحسن رأيه، فدهم أوسما وسوى قلعتها بالأرض، ودمر سان استيبان بعد أن فرت حاميتها، ثم اتجه إلى نافار ونازل سانشو (شانجة) ففر أمامه من الميدان مرتين، ثم جاءت النجدة من ليون إلى جيوش نافار، وكان المسيحيون فى موقع طبيعى يمكنهم من العرب، ولكن الأمير نازلهم فى وادى القصب واستأصل جموعهم، وأثارت منعة حدود المسيحيين غضب المسلمين فوضعوا السيف والنار فى حامية ميوز، ومن الحق أن نقرر آسفين أن العرب فى بعض هذه الوقائع حاكوا أعداءهم فى أعمال القسوة والعنف، وبخاصة حينما كانت تضم جيوشهم عددًا من الإفريقيين الذين اشتهروا بالوحشية والشراسة، ولكن عود المسيحيين كان صلبًا لا يلين، فلم تستطع الهزائم أن تفل من عزمهم أو تكسر من شوكتهم، ولن يفوق شىء عزم المسيحيين المغلوبين، فقد كانوا على توحشهم يمتازون بشجاعة الرجال، فكم حطمت جيوشهم مرة بعد مرة وهم ينهضون فى إثر كل هزيمة بقلب ثابت

جديد. لذلك لم يمض على كارثتهم فى موقعة وادى القصب إلا سنة واحـدة حتى وثب أردون الذى كان يمثل روح المقاومة المسـيحية، وشن بجيوشه حربًا ضروسًا على الحدود.

وفى سـنة ٩٢٣ م / ٣١١ هـ زحف سانشـو ملك نافار واستحوذ على بعض القلاع القوية، فأثار ذلك همة الأمير، فقاد جيوشـه مرة أخرى نحو الشـمال وقد تملكه فى هذه المـرة عزم عابس، وأدركه غضب الأسود ديس عرينها، فانتهب وأحرق كل ما مر به من المدن والقـرى، وملأ الرعـب منه النفوس فأخذ النـاس يجلون عن المدن كلما شعروا باقترابه، وفتحت له قصبة بنبلونة أبوابها بعد أن فر أهلها، ومزق جيش سانشو فتراجع منهزمًا مدحورًا، وقام المسلمون إلى كنيسـة القصبة فهدموها ودمروا كثيرًا مـن دورها، وأصبحت نافار بمن فيها وما فيها تحت قدمى الأمير.

وفى هذا الوقت مات أردون ملك ليون، وثارت الفتنة بين أبنائه واشـتعلت بينهم حرب أهلية أعطت الأمير متنفسًا وفسحة للنظر فى شئون أخرى.

ولما عـاد عبد الرحمن الناصر من هذه النصرة اتخذ لنفسـه لقبًا جديـدًا فقد كان حكام الأندلس قبله يلقبون بالأمراء، ولم يدّع أحد مـن حكام بنـى أمية حقًّا فـى الخلافة - على الرغـم من إنكارهم خلافة العباسـيين الذين ثلوا عرشهم بالمشرق - لأنهم رأوا أن لقب الخليفة لا يسـتحقه إلا من يحكم الحرمين، فقنعوا على كره منهم

بأن يتركوا للعباسيين لقبهم غير منازعين فيه، غير أنه حينما شاع فى الأندلس أن الخلفاء العباسيين أصبحوا وليس لهم شىء من النفوذ فى خارج حدود بغداد، وأنهم يعيشون بها عيشة السجناء لتشتت أجزاء المملكة، ونشوء الأوطان المستقلة[1] أسرع عبد الرحمن فدعا بنفسه خليفة على المسلمين وسمى نفسه الناصرلدين الله[2].

انتحل الخليفة هذا اللقب قبل موته بثلاثين سنة ملئت بالحكمة والعدالة والحزم، وصخبت بحروب مستمرة كانت تشن كل عام على المسيحيين، فرفعت من قدره وجعلته جديرًا بلقبه الناصرلدين الله.

ولكن الحروب الأهلية التى حدّت زمنًا من قوة أهل ليون انطفأت الآن وسكن غبارها، وظهر من خلالها ملك مسيحىّ عسىّ بالمنصب، جدير بأن يكون خليفة لأردون العظيم؛ فقد ولى الملك راميرو الثانى (ردمير) فى سنة ٩٣١ م / ٣١٩ هـ وبرزت فيه صفات الفروسية بعزمه الصارم على مقاومة جيوش الخليفة، وبعد قليل عقدت فى الشمال بين المسيحيين وأمير سرقسطة[3] معاهدة شديدة الخطر

---

(١) يضاف إلى ذلك ما كان من قتل المظفر لمولاه المقتدر سنة ٣١٧ هـ / ٩٣٩ م.

(٢) وأرسل منشورًا بالخلافة إلى الولاة، فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه.

(٣) هو محمد بن هاشم التجيبى، خلع الطاعة سنة ٩٣٤ م / ٣٢٣ هـ وانضم إلى راميرو وإلى ملك نافار وأثار جميع أهل الثغر على الخليفة، فزحف الخليفة عليه وأخذ قلعة أيوب وحاصر سرقسطة إلى أن لاذ محمد بن هاشم بطلب العفو فعفا عنه.

سيئة المغبة، فأسرع عبد الرحمن إلى تمزيق هذه المعاهدة وإخضاع سرقطسة فى سنة ٩٣٧ م / ٣٢٧ هـ ثم زحف على نافار، ونشر الرعب والفزع أينما سار، حتى إن الملكة الوصية (طوطة) أسرعت إليه لتقدم خضوع المحكوم للحاكم، ولكن راميرو لم يشترك فى شىء من هذا الاستسلام، فلم شتات جيشه وتغلب على المسلمين وقهرهم فى موقعة الخندق، وكانت كارثة على المسلمين، فسقط منهم خمسون ألفًا فى الميدان، ونجا الخليفة بنفسه وما كاد ينجو، وفر بأقل من خمسين فارساً، وبقيت هذه السنة المشئومة عهدًا طويلا بالأندلس تسمى بسنة الخندق[1].

ولو أن المسيحيين سايروا تغلبهم وجاروا تقدمهم، لجاز أن يكتب اليوم لإسبانيا تاريخ آخر، ولكنهم كشأنهم شغلتهم العداوة والبغضاء، ووقع النزاع بين أمرائهم، فحمى ذلك الخليفة من شرهم، واقتنص فرصة تدابرهم للانتعاش من كارثته ولم شعث ما تفرق من جيشه، وأخذ الأهبة لهجوم جديد؛ فقد كانت الفتنة متأججة فى قشتالة لمقاومة سيطرة أهل ليون، وكان حاكم قشتالة فى هذا الحين

(١) قال المسعودى: كان عبد الرحمن فى أكثر من مائة ألف من الجند. ويعلل صاحب أخبار مجموعة هذه الهزيمة بأن وجوه رجال الجيش تواطئوا على الانهزام كراهة فى قائدهم غير العربى نجدة الصقلبى، وقال إن عبد الرحمن لم يحضر موقعة بعد هذه.

فرناندو غونزاليز المشهور[1] الذى غنى بمدحه كثير من الشعراء، فإنه كان بطلا من أبطال إسبانيا، تزوج ببطلة خلصته مرتين من السجن بعد أن ألقاه فيه بعض الحسدة من جيرانه أصحاب نافار وليون، وكانت حيلتها فى خلاصه فى المرة الثانية أن ارتدت ثياب زوجها وعرضت نفسها للوقوع فى أيدى السجانين، أما خلاصه فى المرة الأولى فكان قبل زواجها به حينما كان فى طريقه ليخطبها من أبيها غرسية ملك نافار الذى قبض عليه أول ما رآه وألقاه فى السجن.

وتقص علينا أنشودة إسبانية خبر خلاصه من محبسه فتقول:

«لقد حملوا بعيدًا كونت قشتالة العظيم إلى نافار، ثم قيدوا رجليه إلى يديه قيدًا مؤلمًا، وطار بهم الفَرح، وأولوا الولائم لاقتناصه حقًّا إن سجن الملك غرسية يضم أشجع بطل بإسبانيا».

ثم يستمر الشاعر فيقص علينا أن فارسًا نورمانديًّا كان مارًّا بنافار:

«ثم جاء وهو يرجو أن يقارع العرب بسيفه فى سبيل نصرة المسيح».

ثم يقول الشاعر: إن هذا الفارس أخبر بنت غرسية بأسر غونزاليز وعدّد لها ما فى أسره من الضرر الذى يلحق بالمسيحيين بإسبانيا:

---

(١) يسميه صاحب نفح الطيب: فردلند قومس قشتيلة.

«إن أسره بهجة ومسرة لقلوب العرب، ولكنه لنا حزن أليم...»
«لقد فقدت فيه إسبانيا حارسًا، كما فقدت فيه قشتالة زعيما».
«إن جيوش العرب تتدفق تدفّق السيول فى النهر».
«لعنة الله على الأغلال المسيحية التى تغل يدى غونزاليز».
ثم أخذ الفارس النورماندى يرجو الأميرة فى تخليص السجين:
«لم تجب السيدة إلا قليلًا غير أنها فى حنادس الليل».
«وقد نام كل الخدم نهضت وانسابت من القصر».
«ثم أغرت حارس السجن بحليها وذهبها».
«فباع لها ذلك الحارس الفسل سجينه».
وهكذا أخرجت الأميرة الكونت من سجنه وفرا معًا إلى قشتالة ... وتعد هذه القصة فى هذا الوقت الذى نؤرخ حوادثه قديمة، لأن غونزاليز كان قد تزوج بها منذ سنين، وصمم على أن تكون قشتالة مستقلة لا سيطرة عليها لليون.

وفى هذا الحين قبض عليه راميرو ولم ينج من سجنه إلا بعد أن تبين لراميرو أن القشتاليين لا يقبلون سواه حاكمًا، وأنهم يؤثرون الخضوع لتمثال زعيمهم على أن يدينوا بالطاعة إلى ملك ليون، لذلك أطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يبقى خاضعًا لملكة ليون، وأن يزوج ابنته من أردون أحد أبناء راميرو، وقد فترت همة فرناندو بعد هذا الإذلال عن أن يقابل العرب فى صفوف ليون، وعزم على أن يترك الليونيين لينالوا نصيبهم من الإذلال والمهانة، غير أن ذلك

لم يكن فى عهد راميرو الذى فاز بانتصار على العرب فى سنة ٩٥٠ م / ٣٣٩ هـ بالقرب من طلبيرة، ومات فى السنة التى تليها شامخ العز وافر المجد.

وبعد موته اتخذ غونزاليز لنفسه صناعة «عمل الملوك» فأخذ على عاتقه حماية سانشو (شانجة)[1] من أخيه أردون الثالث، وحينما خلف سانشو أخاه فى سنة ٩٥٧ م / ٣٤٦ هـ انقلب عليه غونزاليز وطرده من ليون، ووضع على العرش مكانه أردون الرابع، وكان كسيحًا ينبزه الناس بالأثيم، فالتجأ سانشو إلى جدته «طوطة» ملكة نافار، ولم يلبثا إلا قليلا حتى استنجدا بخليفة قرطبة ليأخذ بناصرهما فى هذه الشدة[2] وكان سانشو عظيم الضخامة والسمن، لا يكاد يستطيع المشى خطوات إلا مستندًا إلى شخصين، فعزم على أن يستشير الأطباء البارزين بقرطبة الذين طارت شهرتهم فى جميع الأقطار، وبعثت الملكة «طوطة» رسلاً إلى عبد الرحمن فى هذا

---

(١) يسميه صاحب نفح الطيب «غرسية بن شانجة» وهو حفيد طوطة، أما ابنها فاسمه سانشو.

(٢) فى نفح الطيب: وكان غرسية بن شانجة استولى على جليقية بعد أبيه شانجة فرويله ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشيلة فردلند ومال إلى أردون ابن ردميرُ، وكان غرسية بن شانجة حافدًا لطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة وإعادة حافدها غرسية على ملكه ونصره من عدوه، وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم.

الشـأن، فعزم على أن يرسل حسـداى وهو طبيب يهودى بارع[1]، ولكنه اشـترط لذلك شروطًا منها: تسـليم عدد من القلاع، وحضور سانشو والملكة طوطة إلى قرطبة.

وقد صعب على الملكة أول الأمر أن تسـافر إلى حاضرة المسلمين، لأن وجودها سـيكون مظهرًا من مظاهر قوة الخليفة وعظم سلطانه، ولكنها بعد كل هذا سـافرت مع ابنها ملك نافار، وحفيدها المنفى ملك ليون. فاسـتقبلهم عبد الرحمن باحتفال عظيم لما طبع عليه من الكرم والأدب الجم، ولم يتخلص سانشو سريعًا من سمنه فحسب، بل عاد إلى الشمال مؤيدًا بجيوش من الخليفة استرد بها فى النهاية عرش ليون سنة ٩٤٠ م / ٣٤٩ هـ.

وفى السنة التالية مات الخليفة العظيم عن سبعين عامًا، بعد أن حكم نحو خمسـين سنة أتم بها من وجوه الإصلاح وجلائل الأعمال فى الدولة ما يعجز الخيال عن تصوره، فإنه حين تولى الملك شـابًّا فـى الحادية والعشـرين كانت المملكة فريسـة لزعمـاء العصابات والمفسـدين فى الأرض، فاسـتقلت الولايات واختـارت حكامها، وتحـدت الأحزاب سـلطة الأمـراء وفرقت الدولـة فـرقًا، وعاثت الفوضى وعم النهب البلاد.

---

(١) ابن إسـحاق من أحبار اليهـود متقدم فى علم شـريعتهم متمكن فى صناعة الطب، اتصل بالحكم بن عبد الرحمن ونال عنده الحظوة فسـاعده على جلب ما شـاء من تآليف اليهود بالشرق.

ففى الجنـوب كانت الدولـة الفاطمية بإفريقيـة تهدد بابتلاع إسبانيا وضمها إلى ملكها، وفى الشمال أخذ أمراء النصارى أهبتهم للزحف علـى مملكة أجدادهم وطرد العرب مـن البلاد. فبين هذه الفوضى الجائحة، ومظاهر هذا الدمار الشـامل، ظهر عبد الرحمن فبدل بكل هذا الضعف قوة، وبكل هذا الفسـاد نظامًا وفوزًا مبينًا، وقبل أن يمر النصف الأول من سـنى حكمه أعاد السـلم إلى نصابه، وثبـت دعائم حكومة عادلة فى طول المملكة الإسـلامية وعرضها، وقضى على سـلطة الأحزاب، ونشر نفوذه مهيبًا مستبدًّا بين جميع طبقات رعيته.

وفـى النصف الثانى مـن حكمه حاط مملكته بالقـوة والمهابة، فأرهـب أعداءه فى الخـارج وأزاح الإفريقيين العتـاة عنه بعيدًا، وأنشـأ حامية بسـبتة تقف فى وجوههم، وقاسمهم السيطرة على البحـر مقاسمة النظير للنظير، وفى الشـمال عصف بالقوة النامية لنصارى ليون وقشـتالة ونافار، وكانت له اليد العليا عليهم، حتى إنهم كثيرًا ما قدموا عليه لحل مشكلاتهم واسترداد حقوقهم[1].

نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسـها ومن أعدائها، ولم يكتـف بإنقاذها من الدمار، بل خلق منهـا دولة عزيزة الجانب،

---

(١) يقول ابن حيان، إن ملك الناصر كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلـب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسـائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية.

ولم تكـن قرطبـة فى عهد من عهودها أغنـى ولا أكثر ازدهارًا مما كانـت عليه فى عهد الناصـر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال مـن الخصب والإمراع والإنتاج وتـوالى الخيرات التى نماها ووصـل بها إلى الكمال كدّ أهلهـا ومهارتهم فى الصناعة، ولم يكن الحكم الأندلسـى فى يوم من أيامه أبهر انتصارًا على الفوضى، ولم تكـن قوة القانون أكثـر نفوذًا إلى القلوب وأعظـم هيبة مثلما كانت فـى أيام عبد الرحمن، فقد تسـابق إلى أبوابه الرسـل من فرنسـا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد. وكانت قوته وحكمتـه وثروة مملكته مضرب المثل فـى أوربا وإفريقية، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسـلامية بآسيا، وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلًا واحدًا عاند كل شـىء فقهره، ووقف فى طريقه كل شىء فحطمه، بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار، ولم تصل البلاد إلى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصروصدق عزيمته.

ويلـوّن مؤرخو العرب صورة هذا الرجـل الهمام بألوان لا تكاد تتفق مع ما كان له من سياسة عنيفة مسيطرة، على أنهم كانوا أمناء فى وصفه «بأنه كان أرحم من حكم مملكة فى الأرض، وأكثر الملوك علمًـا، وبأن أحاديـث حلمه وكرمه وعدله سـارت فى الناس مثلا شـرودًا، وبأنه لم يفقه أحد ممن سـبقوه فى الشجاعة والغيرة على الدين، وبأنه كان محبًّا للعلم مكرمًا لأهله معاشرًا لهم».

ويتناقل الناس قصصًا كثيرة فى صرامته فى الحق وبعده عن المجاملة فيه، ويحدثنا ابن خلدون عن هذا الخليفة العظيم فيقول: «وجد بخط الناصر رحمه الله: أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يومًا. فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يصف له إلا أربعة عشر يومًا؛ فسبحان ذى العزة القائمة، والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو...»